الإصلاح الاجتماعى

والحالة الاقتصادية

لحضرة صاحب السعادة الأستاذ سابا حبشى بك المحامى

وزير التجارة والصناعة سابقا

عند ما ألف حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا وزارته فى شهر أغسطس سنة ١٩٣٩ انشئت وزارة الشؤون الاجتماعية بنفس المرسوم الملكى الذى صدر باعتماد تشكيلها .

وقد سجل ذلك المرسوم لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث أن الإصلاح الاجتماعى من أعمال الدولة ، وأن أحوال الفلاح والعامل مما يجب أن تعنى به .

على أن هذا الإصلاح لايقع على عاتق الدولة وحدها ، وإنما هو فرض على المجتمع المصرى كافة . فهو واجب على المواطنين الأقوياء نحو إخوتهم الضعفاء ، وعلى الأغنياء نحو الفقراء ، وعلى المتعلمين نحو الجهلاء .

واذا أردنا أن نلخص برنامج الاصلاح الاجتماعى فى كلمة جامعة قلنا إن محصله الكفاح ضد مثلث الويلات المكون من الفقر والمرض والجهل .

واذا شئنا أن نضع تلخيصا للتلخيص أمكن أن تندمج أضلاع المثلث جميعا فى كلمة واحدة وهى محاربة الفقر .

ذلك لأن الجهل والمرض فى أغلب الأحوال من نتائج الفقر ، ولأن ضيق ذات اليد من مستلزمات الفقر الخلقى والعقلى والجسمى .

وقد روى عن أمير المؤمنين على بن ابى طالب أنه قال " لو كان الفقر رجلا لقتلته " .

وقال الرئيس هوفر الذى قام بتدبير إسعاف أوربا فى المجاعة التى كانت تتهددها عقب الحرب العظمى الماضية " إن القضاء على الفقر كان ولا يزال من قديم الزمان أسمى وأعز الامانى الإنسانية " .

ويبنى على هذا أنه مهما تعددت أوجه المسائل الاجتماعية عندنا فانه يمكن ردّها الى المشكلة الاقتصادية التى تعانيها بلادنا العزيزة .

فالفقر موجود بين ظهرانينا فى صور شتى بعضها بالغ أقصى حدود البؤس وأقساها ، فلا سبيل الى إنكاره أو محاولة تجاهله . وقد سجلت إحدى خطب العرش منذ سنين أن مستوى المعيشة الحالى فى مصر دون المستوى الذى اصطلحت الإنسانية على تحقيقه للفرد والجماعة .

واذا نظرنا الى حالة الريف المصرى نجد أن نصيب الفرد من السكان فى الأراضى المزروعة قد هبط من واحد وعشرين قيراطا من فدان فى سنة ١٨٩٧ الى عشرة قراريط فى سنة ١٩٣٧

على أن أكثر من نصف هذه الثروة فى يد عدد من الملاك لا يتجاوز ١٥٧٠٠٠ أما باقى الزراع فلا يملكون شيئا من الأرض التى يفلحونها أو لا يملكون إلا مساحات صغيرة .

كما أننا نجد أن نصيب كل فرد من سكان البلاد فى الدخل القومى لا يزيد عن عشرة جنيهات فى العام مع السخاء فى التقدير، بينما تدل الإحصاءات الأخيرة على أن نصيب الفرد فى استهلاك المواد الغذائية الأساسية كالقمح والذرة آخذ فى النقصان بنسب كبيرة . ولعل هذا يفسر لنا انتشار مرض البلاجرا وغيره من الأمراض الناشئة عن قلة التغذية والتى تضعف حيوية الشعب المصرى وقدرته على العمل والانتاج .

ولا يجدى نفعا أن نخادع أنفسنا عن سوء الحال الظاهر بالتحدث عن خصب تربة أرض مصر، إذ أن كثافة السكان تجعل ما يخص الفرد فى ثروة البلاد ضئيلا. وقد بلغ متوسط عدد السكان للكيلو متر المربع فى مديرية المنوفية ٦٨٦ نسمة .

فلم يعد إذن حضرة صاحب الدولة إسماعيل صدقى باشا الصواب عند ما وصف هذه الحالة الاقتصادية بأنها فقر مستور بلفائف من حرير .

ثم اذا انتقلنا من الريف الى المدن وجدنا أن حال الصانع لا تفضل حال الفلاح كثيرا .

ولعل أبلغ وصف يصور تصويرا واقعيا حالة الأحياء الفقيرة التى تكتظ بها الطبقة العاملة فى المدن ما ذكره حضرة صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفى باشا فى كتابه " على هامش السياسة" عن بعض مواضع فى مدينة القاهرة حيث يقول :

"لا أظن أن هناك ركنا من أركان العاصمة المجهولة لم تطأه قدماى، ولذلك رأيت ما لم يره غيرى . رأيت عجبا : الأزقة التى لا تتسع لأكثر من شخص واحد يسير فيها . دخلت بيوتا تنبعث منها الروائح الكريهة المهلكة وتعلو جدرانها الرطوبة صيفا وشتاء . لا شمس ولا هواء ولا نور ينفذ اليها، تسكن الحجرة الواحدة أسرة مكونة من الأب والأبن والأولاد . ويعيش

معهم أحيانا بعض الحيوانات والطيور المنزلية. ولست أبالغ فى هذا الوصف فليس من الصعب على كل من يريد التأكد أن يذهب الى عرب اليسار أو عشش الترجمان" .

لنا أن نتساءل: هل عولجت مشكلة الفقر فى مصر؟ وكيف عولجت؟ وهل كان للحالة الاقتصادية نصيب من تفكير الحكومة الشامل ؟ .

إننى أشاطر الرأى القائل بأن محاربتنا للفقر لم تتجه بعد الى هدف معين، كما أننا لم نضع بعد الخطط الاقتصادية التى توصلنا الى ما نريده لبلادنا العزيزة . فقد عنينا ببعض الأعراض الظاهرة للفقر فأنشأنا المستشفيات للمرضى ، وأنفقنا مالا كثيرا على التعليم الإلزامى ، ولكننا لم نواجه بعد مشكلة الفقر فى جوهرها ، مع أن الفقر — كما قال حضرة صاحب السعادة عبد الرحمن بك عزام وزير الشؤون الاجتماعية السابق — مصدر كل المصائب والشرور . ولم نفكر بعد فى برنامج شامل للإصلاح الاقتصادى يزيد موارد الفرد ويؤدى الى رفاهية المجموع .

هل يريد القراء مثلا من أثر هذه السياسة القصيرة النظر التى تأخذ المسائل مجزأة وتتجاهل حقيقة وضعها وصلاتها ببقية أطراف موضوعها .

إننى أقتبس هذا المثال مما كتبه الأستاذ محمد عوض محمد بالجامعة المصرية فى كتاب "سكان هذا الكوكب" حيث يقول فى الفصل الذى خصصه لمشكلة السكان فى مصر :

" هناك الفريق الثانى من المصريين المثقفين المضطرين بحكم وظيفتهم الى الاتصال بأهل الريف من أطباء يعملون فى المستشفيات . فكثير منهم قد شاهد بعينيه منظر الفاقة البشعة يطالعه فى كل نهار وفى كل ساعة من النهار، ورأى بنفسه المهزلة الأليمة التى يراد بها علاج قوم مرضهم الحقيقى هو الفقر المدقع، ورأى كيف يطلب منه أن يشترك فى تلك المهزلة بأن يصرف الأدوية والعقاقير لمن يجب أن يكون علاجهم الأول هو الطعام والشراب والمسكن الطاهر" .

إن علاج المسائل على هذا الوجه يذكرنا بالنكاهة المشهورة عن أهل بلد ضاقت بهم سبل العيش وعضهم الجوع فذهبوا الى حاكم إقليمهم يشكون اليه أنهم لا يجدون الخبز فكان جوابه لهم : اذن كلوا بقلاوة .

ذكرت أننا لم نوفق بعد إلى إعداد خطة شاملة نواجه بها مشكلتنا الاقتصادية ونخفف من ويلات الفقر الذى تخيم سحبه الكثيفة على الطبقة العاملة فى بلادنا .

ولعله كان لنا فى الماضى بعض العذر فى هـذا التقصير حيث لم تكن الأداة الحكومية التى تتولى علاج شؤوننا الاجتماعية قد وجدت بعد .

أما وقد أنشئت الوزارة التى نيط بها الإشراف على الإصلاح الاجتماعى فان لنا أن نتطلع فى المستقبل القريب الى إنارة وجلاء المقاصد والوسائل ووضع الأمور فى موضعها لتمضى فى سبيل الرقى والفلاح قدما .

ويسرنى أن أقول إن جماعة الخدمة الاجتماعية الذين يعملون عملا مجيدا صامتا لبلادهم بمعالجه أكبر المشكلات التى تهدد كياننا ، عملا أساسه حب الخير والتضحية وانكار الذات قد خطوا خطوة تمهيدية موفقة فى هذا السبيل .

فلأول مرة فى مصر عمل تحت إشرافهم تحقيق علمى دقيق عن الفقر ومداه وأسبابه ونتائجه بدراسة أحوال ألف عائلة من العائلات الفقيرة .

كما يسرنى أن أذكر أن تجارب عظيمة النفع والأثر تجرى الآن فى طرق إصلاح القرية حيث أنشأت هذه الجماعة نفسها مركزين للخدمة الاجتماعية ببلدتى شطانوف والمنايل.

وقد ساعد على تحقيق هذه الفكرة الجليلة التى جربت فى الهند فى ترافانكور وأتت بأحسن الثمرات أنه قد أصبح لدينا عدد ممن تخصصوا فى دراسة وسائل الخدمة الاجتماعية فى المدرسة التى أنشئت لهذا الغرض منذ بضع سنوات .

واذا كان لنا أن نستبق النتيجة النهائية لهـذه البحوث والتجارب وأن نحدد الأغراض والغايات التى ينبغى أن نسعى لها والتى يجب أن توجهنا الى تحقيق ما نريده للفلاح والعامل ، فإن خير علاج لسوء الحالة الاقتصادية فى بلادنا هو زيادة الإنتاج الزراعى والصناعى وإحسان استثمار موارد بلادنا لكى نزيد نصيب الفرد من الدخل القومى .

ولست أجد فى التعبير عن أهمية المساعى التى تبذل فى هـذا السبيل أبلغ من القول المأثور " إن من استطاع أن ينتج نباتين من العشب أو سنبلتين من الحنطة حيث لم يكن ينبت إلا نبات واحد أو سنبلة واحدة من قبل قد استحق تقدير الإنسانية أكثر من زمط رجال السياسة أجمعين " .

والمجال فسيح أمام الرجال الأشداء أصحاب العزائم القوية للابتكار والتجديد فى ميدان النشاط الاقتصادى .

ولهم فى هذا أداة فعالة هى البحث العلمى الذى يؤدى الى كشف موارد جديدة هى الآن فى حكم العدم أو أساليب جديدة أوفر إنتاجا من الأساليب الحالية لاستغلال موارد الثروة المعروفة .

فبالرغم من أن القطر المصرى عتيق فى الزراعة التى يتقنها الفلاح إتقانا عظيما عن آبائه وأجداده منذ آلاف السنين ، لا يزال مجال التقدم فيها متسعا حيث أوجد البحث الحديث نوعا جديدا من الزراعة لا يعرفه فى مصر إلا الخاصة تطلق عليه تسمية "الزراعة العلمية".

أما فى الصناعة فإننا لا نزال فى أول الطريق ولم نؤت من العلم بخامات بلادنا ومواردها الصناعية حتى الآن إلا قليلا .

وفى مصر أيد وقوى عاملة كثيرة تشكو البطالة ، ولدى الطبقات العاملة فى الحقل والمصنع أوقات فراغ طويلة تضيع سدًى ، لأن البلاد تحتاج الى المديرين والقادة الذين تنتظم بتفكيرهم وتدبيرهم هذه الجهود وتوجه توجيها منتجا يعود على أصحابها وعلى البلاد كافة بالخير والرواج .

منذ بضع سنوات زار المستر بتلر وكيل مكتب العمل الدولى هذه البلاد بدعوة من الحكومة المصرية لدراسة أحوال العمل والعمال فيها فلاحظ أن هناك نوعا من أنواع البطالة المستترة هو قلة العمل الذى لا يكلف صاحبه إلا مجهود بضع ساعات من النهار أو بضعة أشهر من فصول السنة تتخللها أوقات فراغ و بطالة . فعلينا أن نرشد هؤلاء وأن نعودهم الاعتماد على الذات فى زيادة مواردهم بممارسة صناعات صغيرة مساعدة يضيفونها الى عملهم الأصلى .

إن على الأغنياء والمفكرين والقادة لبلادهم حقا هو أن يجعلوا ما آتاهم الله من ثروة وتفكير موظفا فى خدمة مواطنيهم لا يضيعونه بالأنانية أو الإهمال ، بل يزكونه باستغلاله استغلالا صالحا فينفعون و ينتفعون .

سابا حبشى

كتب الحطيئة الى صديق وعَدَه كثيرا وأخلف كثيرا أبياتا منها :

ووعدتنى فظننت أنك صادق ... وجعلتُ من طمع أجىء وأذهب

فإذا وُجدتُ أنا وأنت بمجلس ... قالوا : مُسَيلمة وهذا أشعب